

الطائفية

من رحمة الله عز وجل أن حذر عباده المؤمنين من الفتنة قبل وقوعها وبين لهم العاصم منها، ألا وهو كتاب الله عز وجل وسنة نبيه صلى الله عليه وسلم، قال تعالى: {وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا} [آل عمران: 103]، وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (تركت فيكم أربين لن تضلوا إن تمسكتم بهما كتاب الله وسنة رسوله) [1]، كما حذر من الفتنة في قوله سبحانه: {وَأَنَّقُوا فِتْنَةً لَا تُصِيبُنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً} [الأنفال: 52]، وقال سبحانه وتعالى: {فَلَيُحَذَّرُ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَنْ تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ} [النور: 63]، كما حذر نبيه صلى الله عليه وسلم من الفتنة في أحاديث كثيرة، منها قوله صلى الله عليه وسلم: (تعرض الفتنة على القلوب كالحصير عوداً فـأـي قـلـبـ أـنـكـرـهـاـ نـكـتـ فـيـ نـكـتـةـ سـوـدـاءـ...) الحديث [2].

وقال صلى الله عليه وسلم: (إِنَّ السَّعِيدَ لِمَنْ جَنَبَ الْفَتْنَةِ). وإن المتأمل في عصرنا الحاضر ليرى دون أدنى جهد ما يموج فيه من الفتنة والبلايا التي تموج كموج البحر ببعضها يرقق ببعضًا كما قال صلى الله عليه وسلم: (.. إِنَّ أَمْتَكُمْ هَذِهِ جَعْلَ عَافِيَتِهَا فِي أَوْلَاهَا. وَسِيَصِيبُ أَخْرَاهَا بَلَاءً وَأَمْوَارَ تَنْكِرُونَهَا، وَتَجِيءُ فِتْنَةٌ فِي رِقْقٍ بَعْضُهَا بَعْضًا وَتَجِيءُ فِتْنَةٌ فِي قُولِ الْمُؤْمِنِ هَذِهِ مَهْلِكَتِي... الحديث) [3].

ولا تخرج هذه الفتنة عن فتن الشبهات والشهوات. ولو أردنا أن نبحث عن أبرز فتن الشبهات التي تميز بها واقعنا المعاصر؛ لوجدناها ممثلة في (فتنة التلبيس والتضليل والخداع)، حيث أصبحت هذه الفتنة سمة بارزة في زماننا اليوم، لا سيما بعد هذه الثورة الإعلامية والتقنية التي تدخل بغير استئذان إلى بيوت الناس وعقولهم وأفكارهم ومن ورائها {شَيَاطِينُ الْإِنْسَانِ} وَالْجِنِّ يُوَحِّي بِعَضُّهُمْ إِلَى بَعْضٍ رُّخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُورًا) [الأنعام: 211]، ولو شاء الله عز وجل ما فعلوه، لكنها سنة الابتلاء والمدافعة، فسبحان الله وبحمده على علمه وحكمته وعزته ورحمته.

وإن من صور التلبيس والتضليل اليوم ما يحصل من التلاعيب بالمصطلحات ووضعها في غير موضعها واستخدام ذلك في تحسين القبيح وتقبیح الحسن.

ومع ما في المصطلحات من فائدة كبيرة في كونها وسائل للتفاهم بأقصر طريق وأوضح دلالة وأقل مجهود ما دامت لا تتعارض مع الكتاب والسنة ولا مع العقل والفطرة؛ إلا أن قوماً تلاعيبوا بها ووظفواها في التلبيس على الناس وإضلالهم؛ فشُوّهوا بها الحق وزينوا بها الباطل.

والمصطلحات من أشد العناصر الثقافية أثراً وفتكاً في ثقافات الأمم، ومع أن المصطلح لا يتجاوز كلمة أو كلمتين أو ثلاث ولا يتعدى ذلك إلا نادراً، إلا أن هذه الكلمة بمدلولها الذي يرمي المتكلم بها لها أثر في تفريغ العقول والقلوب ومئتها. ولها مفعول السحر الذي يستعصي فهمه على منطق العقل.

وإن من المصطلحات التي يتلاعب بها اليوم، لا سيما في هذه السنوات الأخيرة، ويلبس على الناس بها لتهدم عقيدة الولاء والبراء في قلوب المسلمين ولتقصى شريعة الله عز وجل عن الحكم؛ ما يسمى (فتنة الطائفية)، أو الحروب الأهلية، وبطريق عليها بكثافة وأساليب متنوعة، لا سيما عند الراهنون والعلمانيين وسادتهم من الغرب الكافر؛ وذلك لتحقيق مآربهم في القضاء على أهل السنة وعقيدتهم وإقصاء شريعة الله عز وجل، حتى باتت بهذا الطرح المكثف مكرهه ومنبوذة عند أكثر الناس دون إدراك لمغزى مشيعيها.

وإبراء للذمة ونصحاً للأمة أذكر فيما يلي ما أحسبه الفهم الصحيح لـ (الطائفية) ومتى تكون مقبولة ومتى تكون مرفوضة، مستحيئاً في ذلك بالميزان الشرعي والمستمد من الكتاب والسنة الذي هدانا الله عز وجل إليه، لا من موازين البشر الجاهلية المعوجة الضالة المضلة.

المعنى اللغوي للطائفية:

قال الراغب في المفردات: (والطائفة من الناس جماعة منهم، ومن الشيء القطعة منه، قال تعالى: {فَلَوْلَا نَفَرَ مِنْ كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَائِفَةٌ لَّيَتَكَبَّرُوا فِي الدِّينِ} [التوبه: ٢٢١]).

وقال بعضهم: قد يقع ذلك على الواحد فصاعداً وهو مروي عن ابن عباس أ.ه، والطائفي نسبة إلى الطائفة.

كشف التلبيس في كلمة (الطائفية) اليوم:

إن لفظ الطائفة ورد في كتاب الله عز وجل وفي السنة الصحيحة، وذلك في مواطن كثيرة، والذي يهمنا من ذلك: المعينين الكبارين لمفهوم الطائفة الوارد ذكرها في الكتاب والسنة.

المعنى الأول:

إن الله عز وجل أطلق على المؤمنين اسم الطائفة كما أطلق في مقابلها اسم الكافرين أو المنافقين، وذلك في قوله تعالى عن من آمن من قوم شعيب عليه السلام ومن كفر منهم {وَإِنْ كَانَ طَائِفَةً مِّنْكُمْ آمَنُوا بِالَّذِي أَرْسَلْنَا بِهِ وَطَائِفَةً لَمْ يُؤْمِنُوا فَاصْبِرُوا حَتَّى يَحْكُمَ اللَّهُ بَيْنَنَا وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ} [الأعراف: 87]، وكذلك قوله تعالى: {فَامَّا تَنَاهَى طَائِفَةٌ مِّنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَكَفَرَتْ طَائِفَةٌ} [الصف: 14]، فسمى المؤمنين طائفة ويقابلهم طائفة الكفار الذين لم يؤمنوا. وقال الله عز وجل عن طائفة المؤمنين وما يقابلهم من طائفة المنافقين وذلك في سياق غزوة أحد: {ثُمَّ أَنْزَلَ عَلَيْكُمْ مِّنْ بَعْدِ الْغُمْرَأَمَّةَ نُعَاصِي يَعْشَى طَائِفَةً مِّنْكُمْ وَطَائِفَةً قَدْ أَهْمَمْتُهُمْ أَنْفُسُهُمْ يَظْلَمُونَ بِاللَّهِ غَيْرُ الْحَقِّ ظَنَّ الْجَاهِلِيَّةَ يَقُولُونَ هَلْ لَنَا مِنَ الْأَمْرِ مِنْ شَيْءٍ قُلْ إِنَّ الْأَمْرَ كُلُّهُ لِلَّهِ...} [آل عمران: 154]، وليس بين هاتين الطائفتين التقاء ولا ولاء ولا محبة ولا نصرة، بل المتعين على طائفة المؤمنين البراءة من طوائف الكفر والنفاق وبذل البغض والعداوة لهم وجهادهم بالبيان والسانان كلًّا بحسبه حتى يكون الدين كله لله وحده. فطائفة المؤمنين في شق وطائفة الكفار والمنافقين في شق آخر. ولا يجوز للمسلم أن يستحيي من استخدام هذا المصطلح (الطائفية)، بل عليه أن يغتبط ويعتز بأنه من طائفة المؤمنين وأنه مفاسيل ومتربي من طوائف الكفر والنفاق، وإذا وجدت القدرة على جهادهم وجب ذلك ولم يلتفت إلى شبكات المشبهين والمضللين الذين يرفعون في وجوه الدعاة والمجاهدين سيف الطائفية ويصفون الدعوة للإسلام والسنّة والجهاد الذي هو ذروة سنام الإسلام لإعلاء كلمة الله؛ بأنها طائفية أو حرب أهلية. نعم نقولها بكل عزة ولا تردد ولا استحياء: إنها طائفية كونها بين طائفة الحق وطائفة البطل، بل بين حزبين حزب الرحمن وحزب الشيطان.

إن الذين يتذرّعون برفض الطائفية مطلقاً باسم الوحدة الوطنية أو القومية أو الإنسانية، يريدون التوصل بذلك إلى ما يسمونه

التسامح ورفض عقيدة الولاء والبراء وشريعة الجهاد وتقدس الوطن الواحد أو الإقليم الواحد إخواناً ولو كان منهم اليهود والنصارى والمشركون والروافض الباطنيون والمنافقون. ويصفون الحروب التي تنشأ بين المؤمنين والكافر في بلد أو إقليم واحد بأنها فتنة طائفية وحروب أهلية.

أما إنها طائفية فحق ونعتز بذلك، وأما أنها أهلية فلا لأن الكفار ليسوا من أهلها. وقد تأثر بهذه الشبهات بعض أبناء المسلمين فراحوا يدافعون عن أنفسهم وينفون أن يكونوا طائفيين وما علموا أن حربنا مع الكفار والمنافقين جهادية طائفية وليس حرباً أهلية؛ لأن الحروب الأهلية هي ما يحصل بين طوائف المؤمنين كما سبقت في الفقرة القادمة إن شاء الله تعالى، أما الحروب التي تكون بين المؤمنين والكافر فإنها ليست أهلية بل جهادية؛ لأن الكفار ليسوا أهلنا ولا من فئتنا، قال الله عز وجل لنوح عليه السلام في ابنه من صلبه بعد أن أغرقه الله مع الكافرين **{يَا نُوحاً إِنَّهُ لَيُسَّرَ مِنْ أَهْلَكَ إِنَّهُ عَمِلَ غَيْرُ صَالِحٍ}** [هود: 46]، فالكافر والمنافق والزنديق ليس من أهل المؤمنين ولو كانوا أقرب الأقربين. هذا هو كلام الله عز وجل وهذا هو شرعاً، لكن المنافقين لا يعلمون أو يعلمون لكنهم بهت ملبوسون مضللون.

ومن العجيب أن الذين ينددون بالطائفية من الرافضة أو العلمانيين هم طائفيون إلى العظم، فلماذا حلال لهم وحرام على طائفة الحق؟

المعنى الثاني:

ورد ذكر الطائفة أيضاً في القرآن، ويراد منها طوائف المؤمنين حسب مهامهم أو أوصافهم، لكنهم يشملهم وصف الإيمان كما في قوله عز وجل: **{إِذْ هَمَّتْ طَائِفَتَانِ مِنْكُمْ أَنْ تَفْشِلَا وَاللَّهُ وَلِيُهُمَا وَعَلَى اللَّهِ فَلَيَتَوَكَّلُ الْمُؤْمِنُونَ}** [آل عمران: 122]، وقال تعالى: **{وَإِذَا كُنْتَ فِيهِمْ فَأَقْمِنْتَ لَهُمُ الصَّلَاةَ فَلَتَقُمْ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ مَعَكَ وَلَيَأْخُذُوا أَسْلَحَتَهُمْ فَإِذَا سَجَدُوا فَلَيَكُونُوا مِنْ وَرَائِكُمْ وَلَنْ تَأْتِ طَائِفَةٌ أُخْرَى لَمْ يُصَلِّوْ فَلَيُصَلِّوْ مَعَكَ وَلَيَأْخُذُوا حِنْرَهُمْ وَأَسْلَحَتَهُمْ...}** [النساء: 102]، ومن ذلك قوله صلى الله عليه وسلم: **(لَا يَزَال طَائِفَةٌ مِنْ أُمَّتِي ظَاهِرِينَ حَتَّى يَأْتِيَهُمْ أَمْرُ اللَّهِ وَهُمْ ظَاهِرُونَ)** [4].

وكل طوائف المسلمين يجب بذل الولاء والنصرة لهم كل بحسبه، فكل مسلم من أهل القبلة يجب بذل الولاء العام له ولا ينافي عنه مطلق الولاء إلا بخروجه عن الإسلام، لكن الولاء يكون بحسب ما يكون عليه المسلم؛ فإذا كمل صفات المسلمين والمؤمنين والتزم بعقيدة أهل السنة والجماعة، فله بذلك الولاء المطلق، وإن أخل بشيء من ذلك، كما هو الحال في طوائف البدع غير المكفرة، فله مطلق الولاء يوالى بما فيه من الخير والاتباع ويثيراً مما يتلخص به من الفسق والبدعة، ولا يتبرأ منه من جميع الوجوه إلا إذا خرج عن ملة الإسلام.

وإذا كان الولاء العام يبذل لكل طوائف المسلمين، فإن القتال بينهم والحالة هذه محرم؛ لأنه قتال فتنة. ويمكن أن توصف مثل هذه الحروب التي تحصل بين المسلمين بأنها أهلية يجب اجتنابها والسعى إلى إخماها، إلا في حالة قتال الصالحين كالبغاة والمحاربين، فهذا مشروع ولو كانوا مسلمين.

هذا ما يسر الله عز وجل من كتابته حول هذا الموضوع، والحمد لله رب العالمين.

[1] أخرجه مالك وحسنه الألباني.

[2] أخرجه مسلم.

[3] أخرجه مسلم.

مجلة البيان العدد 308

المصادر: